مُناقشات

في مشكلة مي

بقلم : صدر الدين شرف الدين

لا أدعي انني تفرغت لهذه المشكلة ، بل اعترف بأنني لم أعن بها عناية ذات بال .

ولكني وقعت في مجلة « الآداب » الغراء ، على بحث وقفه الاستاذ انور المعداوي على حلها، وكانت لي قراءات بعيدة في « قلب » مي: تلك العبقرية — حافظ على المصدرية — المبدعة ، فرأيت أن استعيدها بهذا البحث الطري الطلي ، يجتمع له توفر قلم واختصاصه ، او اضيف اليها منه، ضوءاً يلقى على امرأة فكر ، كانت فتحاً في ادبنا الحديث ، وستظل ركنا بين اركان تطوره وانتقاله .

الطري الطلي . انا لم اسلف البحث هذا الوصف قبل قراءته ، ولم اعطه اياه من عندي ، وانما خرجت به منه ، وخلعته عليه من حقيقته، والواقع ان للكاتب الفاضل جهداً سابراً ، يتخالج بالتجديد ، ويتطامح الى حل ما اسماه مشكلة ، حلاً يريد ان يضيف فيه العمق الى الطلاوة .

وانا إذ اسلم بطلاوة بحثه وطراوته ، اشك بعمقه واصابته ، ويخيل الي انه حمل الالفاظ فوق ما تحمل،حين استوحى رسائل «مي» في سبيل تجريدها من انوثتها ، وانتزاع قلبها من بين جنبيها ، وتركها عقلاً محضاً، لذته الكبرى انما هي الفكر . وطموحاً خالصاً ، هدفه الاسمى انما هو المجد والشهرة .

على اني حين اخالفة ، لا اجزم بصحة ما اذهب اليه في فهم النص صحة مطلقة ، ففهم النص ، كانشائه ، عمل فني ، وانطباع « ذاتي » ، مبناهما الذوق، وهذا لا يخضع لقواعد معينة ، تحدد مدلول النص تحديداً رياضياً ، ينفي عنه الخلاف ، واللبس ، والتباين، و « التفسير » — بناء على هذا — حر الا من هبة المفسر، وعبقرية الفكر في تلفته وتفاوته ، نعم تتقيد هذه الحرية بالمبادىء العامة حرصاً على الصحة ، وتتمسك بمفادها منعا للفوضى ، ثم هي تتجوهر بالمعاناة ، والممارسة ، والاطلاع .

وفي صدد الدفاع عن (قلب) مي ، عن انوثتها المتكبرة ، عن دموعها الضاحكة ، عن ضحكاتها الباكية ، ما اظنني محتاجا الى الاستنجاد بالذاكرة ، ولا الى التماس الادلة فيما تفرق من اخبار « مي » واثارها ، وبحسبي ما اورده الاستاذ المعداوي من وثائق ايد بها ـ فيما زعم ـ مدعاه ، فانها بالذات تمسك على « مي » طبيعة الانثى الكاملة ، شرط التأكد من حقيقة واحدة ، هي ان للأنثى الممتازة جبروتا لا يخضع للمقاييس التي اخضع اليها الكاتب الفاضل صاحبته ، للانثى طاقة ضخمة من الصبر وقوة الارادة تقدرها على ضبط اعصابها ، وحفظ توازنها ، اذا عصفت عاطفتها او اضطرمت ، فقد تغلي احشاؤها وتلتهب، ولكنها تظهر متزنة ، او ابية جامحة . بل ربما كان الجموح ذاته في لغتها تعبيراً سلبياً عن حب طاغية ، وعاطفة حمقاء . انه يكون في كثير من الاحيان دلالاً ، مصدره غريزة الترفع . والاحساس بالكرامة الاصيلان عند المرأة . فاذا رأينا امرأة تغلب نفسها في مقاومة الرجال ، فلا ينبغي ان نثأر منها بالحكم على انوثتها بالخمود ، او الموت، بل علينا ان نكبر عظيم جهادها، ونضع صبرها في اطاره الحق ، وعلينا ان نلتمس في نفسها عقدة غير موت طبيعتها ، تبرر جموحها اذا اطرد واستمر ، فاذا انتهينا الى شذوذ ما ، فانما مرد هذا الشذوذ حيوية الانوثة الملجمة، لا فقدان الانوثة، ومن هنا يكون الشذوذ اذا ثبت ، ظاهرة وجود ، لا آية عدم .

وما لي أعمم القول ، واجاوزه القدر الذي اردت من هذه الكلمة . ولم اقصد بها الى اكثر من تفسير نصوص « مي » تفسيراً يناقض تفسير الاستاذ المعداوي، ثم يماشيه في الكشف عن جانب من حياة «مي».

الكاتب الفاضل يرى في « مي » قبراً وئدت فيه الانوثة ، او يرى الانوثة في « مي » خامدة قتيلا ، على حد تعبيره .

خاطرة غريبة ! غرابتها انزلتها من نفسه منزلة الرأي ، وسيطرت عليه ، وهو يدرس النصوص في سبيل اثباتها ، فأرته من عنف الانوثة ، واحتدام معركتها نقيض ذلك . ولو تحرر من هذه « الغرابة » لأخذ في اغلب الظن، بغير ما اخذ من هذه النصوص ، ولانتهى من دراسته الى نتيجة يطمئن فيها بالحكم على « مي » بانوثة يعذبها الحرمان ، ويرفعها التعفف ، ويعقدها سوء الظن بالرجل .

ابتدأ خاطرته من (صالون) مي، فوجدها امرأة تجالس الرجال كاحدهم لا يزلزل انوثتها، ولا يغريها استدعاؤهم ، او استدعاء نداءاتهم المختلفة ، ثم رأى من هدوئها ما اطمعه بالاستدلال على جمودها، فاذا هو يختار في هذا السبيل اشخاصا مروا بحياتها، فلم يحركوا شوقها . وينتخب نصوصا من رسائلها زعم انها كشفت عن شللها .

اما الاشخاص فهم ولي الدين يكن ، والرافعي ، وجبران، واما النصوص فخمس رسائل ، او خمس قطع من حديثها الى جبران .

ولنبدأ بولي الدين والرافعي كما بدأ ، ثم لنتمهل قليلاً امامها خلافا لما فعل ، فانه ليبدو ان الخلاف بيننا وبينه يبدأ من اول الطريق، فنحن نرى عند هذين الاديبين سراً خطيراً يغير مجرى التفكير في فهم هذا الجانب من حياة مي ، ولو اعاره الكاتب بعض الاهتمام ، لأفاد منه لبحثه فائدة اكثر انسجاما مع طبائع الأمور وحقائق الاشياء .

الخطورة فيما نقله عن الرجلين تظهر في امكان اعتبارهما نواة لعقدة « احتقار الرجل » ... نوع الرجل ، في نفس « مي » ، ذلك انها اراداها متعة ، ينعمان منها بلذة الجسد ، ومن المعقول ، في هذه الحال ، ان تجدث في نفسها الرجة ، وتضع على عينيها منظاراً ترى من خلاله في تعميم الى الرجل ظالما ، انانيا ، غادراً ، نهماً ، لا ورعا ، ولا متحرجا ، وكان لا بد لها ، مع هذا الرأي ، من تضحية ، اذا لم يكن بد من الترفع ، والتسامي ، والارتباط « بالخلقية » الشرقية ، فكان حبس انوثتها فداء لترفعها ، وثمنا لكرامتها ، ثم كان اثباتا لوجود نسوي قوي يدحض الرأي « البشاري » ويضرب به وجوه الرجال من اتباعه .

وانا اذ استشهد نصي الرجلين على ما استنتج ، اشير الى انهما يجتمعان في هذا المدى ، ثم هما مفترقان في المنطق الفني ، والتقويم الذاتي،لا يصح ضربهما بعصا واحدة كما فعل الكاتب .

روى الكاتب الفاضل عن ولي الدين رسالة « شعرية » جاء في آخرها : « ... والآن عندي قبلة . هي اجل زهرة في ربيع الامل ، اضعها تحت قدمين ، إن تقبليها تزيدي كرما ، وان ترديها فقصاراي الامتثال ، وبعد فاني في انتظار بشائر رضاك » .

اما الذي اخذه الكاتب على هذه الرسالة، فهو انها من الحب الذليل،والادب المصنوع، ثم لم يشر بشيء الى ما فيها من الابتذال الذي ينافي السمو ،والسوقية التي تجرح الكبرياء ، والشراهة التي تصدم العفة ، وظني ان « مي » لو حققت امنية صاحبها لكانت عند صاحبي انثى عظيمة الحظ من الانوثة .

وروى عن الرافعي رسالة جاء فيها : « ... نقـــول الشمس ، والقمر ، والنجوم ، فاذا انت تريدين ان نراك من مرصد فلكي ، واي بليغ يراك ولا يرى فيـــك جديداً في حسن معانيه ، ومبانيه ، ويعرفك ولا يرى فيك ابدع البديـع فيا يعانيه من افتنانـــه . لله الحمد ان جعلنا نتلقى الماء ، ولم يجشمنا ان نصعد من اجله الى السماء » .

ويضع الكاتب هذه الرسالة الى جنب سابقتها من الحب الذليل ، والادب المصنوع ، وهي مثلها عـــلى معنى التعرض للحب « النواسي » ثم تزيد عليها بادلال صاحبها ، واعتداده وفحولته ، وباغرائها « ميا » ان تنزل من سماء تصونها ، الى ارض اللـذة . ونحن لا ننتظر نجاحا لهذا النحو من الحب عند « مي » لا لما ذهب اليه صاحبنا من ذلة الحب ، ففي حب الرافعي عزة ، ومن انطفاء الشعاع الادبي، فعند الرافعي قدرة على ابداع في كما سمعت من رسالته، ولكنه يريد « ان يتلقى الماء » .. ، ومن « موت الانوثة » ففي اقبالها على هذا وذاك بعد هذه المكاشفة الجريئة ، عمل انثوي صريح . نحن لاننتظر حظوة الرسالتين عند « مي » لا لشيء من هذا كله ، بل للعقدة ، لرد الفعل الذي تركته هذه المحاولات الحمراء في نفسها ، وادت بها الى احتقار الرجل، والاكتفاء من الانوثة بان تظل مصدر وحي وكوة إلهام .

اذا صح هذا ، وهو عندي صحيح ، جاز ان يكون مرتكزا يعدل كثيراً من فهم رسائل مي لجبران على وجه آخر ، غير الذي ذهب اليـــه صاحبنا ، وجاز ان يؤخذ منه لا من (الشيء) الذي سألت عنه مي جبرانا — كما سيجيء — وما ادري لماذا اضاع الكاتب هنا هذا المفتاح ، واجل لقياه الى ما بعد ؟ ولعل في سيطرة (الغرابة) ... غرابة الخاطرة ، عمـــلا في اضاعته ، للاستعاضة عنه بمفتاح تعطيل الحس الانثوي عند مي .

ومهما يكن من امر فان الاهتداء الى هذا المفتاح ، اذا كان رشيداً ، يقود الى فهم « مي » فهما ارفع على الصعيد الفني، وعلى الصعيد الانساني جميعاً.

والان انتقل الى الجزء الثاني من المقال ، وهو الأهم ، فاحاكم موقف « مي » من جبران على هذا الضوء ، ولكني سأقتصر على تقديم نموذجين من فهم النصوص الخمسة مراعاة للاختصار ، ولن يصعب تفسير بقية النصوص — بعد — بهذا الفهم، وكل رجائي ان تعود الى النصوص مرة اخرى في مقال الاستاذ المعداوي من العدد الفائت .

مي اعجبت بجبران دون شك، واحبته في هذه النصوص الخمسة على الاقل ولا مراء، ووجدت في رمزه الفني، وادبه الاخلاقي مثلا للرجل لو سبق اليها لبدل رأيها المفجوع ، ونفست برسائلها عن كثير من الكبت الذي منيت به ، ولكن تلك العقدة ظلت تحفر بينها وبين الرجل ، فلم تستطع ان تتحرر منها وهي تستوحي جبران من ضبابه ، الا انها استطاعت ان تثور على عقدتها المركبة بصراخ انثوي ، اتيح لها من جبران ، اسمعه يدوي في النصوص التي اختارها الكاتب لخنق انوثتها .

هذا لا بد من وضعه في الحساب لفهم النصوص فيها جذريا ، واني لارى الى موقفها من جبران ، موقف التمنع ، نتيجة للمقدمات التي سبقت في تجربة الرافعي وولي الدين . وكل شيء في النصوص يشير الى هذا بخصائصه الفنية ، وبمشاعره النفسانية .

خذ الآن رساله الحلاق . وهي اولى النصوص .

هذه الرسالة عندي قصة رفيعة تجتمع لها عناصر القصة الذاتية على اتم وجه هي قصة « مي » في هذه المأساة كلها ، تصورها انثى مرهفة الانوثة ، ناقة على الرجل من اجل انوثتها الأسيرة .

فهي فيها تبكي انوثتها بحزن الثاكل على ذوائبها المقصوصة ، وتسخر بفن « جاحظي » من جبران الذي هو الحلاق ، تسخر منه بوصفه رجلا مسئولاً عن اسر انوثتها، وتظهر هذه العقدة واضحة اذ تسأل الحلاق — وهو يتغزل برأسها بعد القص : « الى كم امرأة قلت كل هذه الكلمات » .

وقد حسب الـــكاتب الفاضل هذه الرسالة على انها حدث واقع ، فتح عليه في التعليق بجناس ذكر فيه الشعر والشعر !

ثم خذ النموذج الثاني حسب تسلسله عند الكاتب ، واقرأ رسالة من « مي» الى جبران تتحدث فيها عن حبها اياه ، وفي الفصل المنشور منها ميدان عجيب لانفعالاتها النفسية ، ولصراع مستحر بـــين عقلها وقلبها ، واهم ما نأخذ من ذلك امور :

١ — حبها لجبران حباً قوياً ثابتاً في تردد ، ان صح التعبير .

٢ — نقمتها على الرجل نقمة مركزة .

٣ — انوثة طاغية تتخيل الخجل من البوح لتتمثل هروب الانثى وملاحقة الرجل لها .

٤ — امتزاج الحب بالنقمة في مظهر يدل عليه خوفها من الحب الذي بسطته في كثير من الدقة ، والانفعال ، واللمح .

وعند ذكر الخوف ننتهي الى عقدة المقال الرئيسية ، واعني بها (الشيء) الذي ظنه الـــكاتب إلغازاً عن (موت الانوثة) ونحن اذ نرى « مي » تحـــذر الحب وتخشاه ، لا نكاد نفهم ، او نفهم انها حريصة على ان تظل (إلهة) ، حـــتى اذا استفهمت جبرانا عن « شيء هو ابعد من الوراثة » — اي افعل منها — بعد ان لامت نفسها على الكتابة ، وبعد ان تذكرت مذهب الشرقيين في ابقاء البنات اميات،فاذا نحن من ذلك (الشيء)، امام السر الرهيب ، واذا هو يفسر لنا خوفها من الحب ، ويلقي لنا ضوءاً جديداً على احتقارها للرجل ، ويرينا الى انها انما تدافع حب جبران بعمل تلك العقدة التي فرضت عليها الرهبانية في غير ترهب ، فاذا هي تتمنى الجهل لأن العلم ورطها (بشيء) او عرضها لشيء ، او هي تتمنى الجهل لأن العلم اراهـــا قبح الغدر في الرجل ، ومنعها ان تغفر له اذا أساء. وما ندري فقد يكون في اعماق هذا (الشيء) امر لا تريد ان يطلع عليه جبران اذا التقيا كما يحب هو.

وما ابعد ما اكتشفه الكاتب في هـــذا « الشيء » ... هو يرى « الشيء » موت الانوثة ، رغم هـــذه الحركة الضاجة ، ورغم هذا الصراع الهائل ، ورغم هذه النقمة الحاقدة ، ورغم الانوثة التي تواجهك متطلعة مترفعة ناقة انى التفت من نصوصها المثبتة في المقال .

واكتفي بهذا القدر من الوقوف الى النصوص ، مطمئناً الى امكان المضي بها على هذا النحو الى النهاية، وان كان لا بد من ذكر شيء آخر ، فاني اشير الى الاستطراد في خاتمة المقال ويبدو لي ان الذي عرض له في هذه الخاتمة من تحديد الفن ، يصح ان يكون جزءاً من دراسة مستقلة لجبران الفنان .

وبعد فهذه خواطر عابرة عرضت لي اثناء القراءة ، فاثبتها غير ضامن لاكثر من كونها تفسيراً من زاويتي ، ولئن ناقشت تفسير المعداوي ، فانها تماشي ، في الجوهر ، غرضه النبيل في خدمة الادب ، والكشف عن الحقيقة .

صدر الدين شرف الدين

بيان من « الآداب »

تلقت المجلة بضمة ردود وتعليقات على بحث رئيس التحرير الدكتور سهيل ادريس حول « القصة العراقية الحديثة » ، وقد ارجيء نشر هذه الردود والتعليقات الى العدد القادم في انتظار سائر الملاحظات على البحث ، حتى يتمكن رئيس التحرير من التعليق عليها جملة واحدة .

انوثة مي زياده

بقلم : رشيد يزبك

كتب الاستاذ انور المعداوي في العدد الماضي من « الآداب » يتحدث عن انوثة مي . وقد عجبت للأدلة التي اتى بها ليثبت ان طبيعة مي الأنثوية كانت مقتولة. واحسب ان الكاتب الفاضل خدع برقدة العاطفة عند الفيلسوفة، ونسي ان الطبيعة لا تنام وان العاطفة التي كانت تتجاهلها مي ، المسيطر عقلها على قلبها ، كانت تظهر من خلال كتاباتها .

وان في كتب مي كثيراً من العبارات التي يصرخ فيها نداء الأمومة ؛ فكيف يريد الأستاذ المعداوي ان تدعو الى الأمومة امرأة ناقصة الأنوثة ؟ وقد قالت جواييت طعمه تصف مي التي عرفتها عن كثب : « لقد كانت مي شديدة العناية باساليب الزينة والتبرج ، وكانت تنحي باللائمة على كل من يقف في سبيل المرأة وينكر عليها هذا السلاح الذي هو حق من حقوقها المشروعة» افلا يدل ذلك على انوثتها الطاغية ؟

ولقد استشهد الكاتب بمقاطع من رسائل مي الى جبران كان في تفسيرها له مغالطة ، فقال : « من رساله لمي الى جبران : انك محبوبي واني اخاف الحب . اني انتظر من الحب كثيراً فأخاف الا يأتيني بكل ما انتظر . اقول هذا مع علمي بان القليل من الحب كثير ، ولكن القليل في الحب لا يرضيني . الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير. » ولا يمكن لأحد ان يقرأ هذه الجملة ويتهم قائلتها في انوثتها . بل على العكس ، ان هذه الرسالة تفضح امرأة مشبوبة العاطفة ، تضع في الحب كل آمالها لأطفاء شهواتها القوية ، ولكنها تخاف الا يستطيع محبوبها اشباع نهمها من السعادة ...

وقد قالت مي لجبران في رسالة اخرى : « الحمد لله انك الآن بعيد ، لأنك لو كنت امامي لاضطررت ان اهرب خجلاً منك ، وليس ما ابدي هنا اثر الوراثة فحسب ، بل هو شيء ابعد من الوراثة . ما هو ؟ قل انت ما هو هذا ؟ » لقد كان في هذا القول مبعث الشك لدى الكاتب، ولكن مي ارادت ان ترجع بهذا الخجل الغريزي في الحقيقة ، لا الى ما ورثته عن اهلها ، بل الى ما فطرت عليه المرأة، وكان من ضمن تكوينها الحياء والحفر لتسترالشوق الى الذكر . الا ترى كيف توقظ انثى الحيوان ذكرها ، فاذا ما جاءها تهاربت؟ انني لم اسمع بخنثى تحب الرجال الى درجة العبادة وتناجي ذكرها بمثل ما تتابع في رسالة مي : « وسواء كنت مخطئة او غير مخطئة ، فان قلبي يسير اليك ويظل حائماً حواليك يحرسك ويحنو عليك . غابت الشمس وراء الافق، ومن خلال السحب العجيبة الاشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة ، نجمة واحدة هي الزهرة الهة الحب. أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون؟ ربما وجد فيها من هو مثلي لها واحد جبران حلو بعيد بعيد هو القريب القريب تكتب اليه الآن والشفق يملأ الفضاء وتعلم ان الظلام يخلف الشفق وان النور يتبع الظلام وان الليل سيخلف النهار والنهار سيخلف الليل مرات عديدة قبل ان ترى الذي تحبه فتتسرب اليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل ، فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد : جبران »

الست ترى هذه الرسالة تحمل نداء ظاهراً من انثى كاملة الأنوثة الى ذكر بعيد حبيب تستعطفه المجيء اليها ؟

وبعد ان مات جبران، أفاقت مي فوجدت انها منبوذة في المنزل الذي شهد تفجرها وجدها فوجمت وتساءلت : « اين ابي وامي ، اين صحبي واين صباي ونفوذي بل اين جبران رفيق روحي ومبدد وحشتي » فاعتزلت العالم تبكي حتى انطفأت ولم يبق منها الا هيكل نحيل يحطمه الزمان يوماً بعد يوم، فخطر لها ان تسافر لعلها تنسى ، ولكنها بالرغم من اسفارها العديدة لم تجد الترويح الذي تطلبه ، فكتبت الى نسيبها الدكتور جوزيف زياده شاكية تقول : « انني اتعذب عذاباً شديداً ولا ادري السبب ، فانا اكثر من مريضة وينبغي خلق تعبير جديد لتفسير ما احسه في وحولي . اني لم اتألم ابداً في حياتي كما اتألم اليوم... وددت لو علمت السبب على الأقل ، ولكني لم اسأل احداً الا وكان جوابه لا شيء. انه وهم شعري تمكن مني. لا لا يا جوزيف ان هناك امراً يمزق احشائي ويميتني في كل يوم، بل في كل دقيقة » ان القضية واضحة جداً : لقد اشتد المرض على مي تحت تأثير يأس العوانس ، وما هذا الأمر الذي تسأل عنه نسيبها سوى هذا اليأس، هذا الجوع الى الأمومة الذي يصيب العوانس العاطفيات عند مناهزة الخمسين .

واني اختم هذه الكلمة بقول زكي مبارك فيها « مي شخصية نسائية في كل شيء . قلبها قلب امرأة وعواطفها عواطف امرأة ، واسلوبها في الكتابة والخطابة والحديث اسلوب فتاة خلوب تعرف كيف تغزو الصدور والقلوب»

رشيد يزبك

صدر حديثاً

وعي المستقبل

للاستاذ قدري حافظ طوقان

كتاب في التوجيه القومي يجدر بكل عربي واعٍ ان يطلع عليه ، ويفيد منه .

الثمن ليرة لبنانية **دار العلم للملايين**

زينب عقيلة بني هاشم

للاستاذ عبد العزيز سيد الأهل

قصة تاريخية تصوّر نضال السيدة زينب اخت الحسين ، في يوم كربلاء ، وتنزلها في مكانها الصحيح بين بطلات العروبة والاسلام .

دار العلم للملايين